

ترجمة الإمام البخاري(*)

١ ـ مولده ونشأته:

هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي، أمير المؤمنين في الحديث.

ولد يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال؛ سنة أربع وتسعين ومائة (١٩٤هـ) ببخارى.

ومات والده إسماعيل وهو صغير، فنشأ في حجر أمه يتيماً.

٢ ـ طلبه للعلم:

قال محمد بن أبي حاتم ـ وراق البخاري ـ: سمعت البخاري يقول: أُلهمت حفظ الحديث وأنا في الكتَّاب. قلت: كما أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتَّاب فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره.

قال: ولمَّا طعنت في ست عشرة سنة حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء، يعني أصحاب الرأي.

قال: ثم خرجت مع أمي وأخي إلى الحج.

قلت ـ القائل وراقه ـ: فكان أول رحلته على هذا سنة عشر ومائتين.

قال: فلما طعنت في ثماني عشرة صنَّفت كتاب «قضايا الصحابة والتابعين»، ثم صنَّفت «التاريخ» في المدينة عند قبر النبي ﷺ، وكنت أكتبه في الليالي المُقْمِرة. قال: وقلَّ اسم في التاريخ إلا وله عندي قصة إلا أني كرهت أن يطول الكتاب.

٣ ـ رحلاته:

رحل في طلب العلم إلى أكثر الأمصار، فقد رحل إلى بلخ، ونيسابور، والرّيّ، وبغداد، والبصرة، والكوفة، ومكة، والمدينة، ومصر، والشام.

قال البخاري: دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرّتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت

(*) انظر ترجمته في: «تاريخ بغداد» ٢/ ٤ ـ ٣٣، «البداية والنهاية» ١١/ ٢٤، «تذكرة الحفاظ» ٢/ ١٢٢، «تهذيب التهذيب» ٩/ ٤٧، «شذرات الذهب» ٢/ ١١٣، «النجوم الزاهرة» ٣/ ٢٥، «وفيات الأعيان» ١/ ٥٧٦، «تهذيب الأسماء واللغات» ١/ ٦٦، وفي غيرها من أمهات كتب التاريخ والتراجم.

بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدِّثين.

هذا، وقد كان البخاري يتمتع بذكاءٍ فائقٍ، فممَّا يروى عنه أنه لمَّا قدم بغداد وسمع به أصحاب الحديث، اجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه، فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسنادٍ آخر، وإسناد هذا المتن لمتنٍ آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس، لكل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري.

وأخذوا عليه الموعد للمجلس، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم، فلمَّا اطمأنَّ المجلس بأهله، انتدب رجل من العَشَرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فما زال يلقي عليه واحداً بعد واحدٍ حتى فرغ، والبخاري يقول: لا أعرفه.

وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: فهِمَ الرجل، ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ.

ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة، فقال: لا أعرفه، فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، فلم يزل كذلك حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه، ثم انتدب الثالث والرابع إلى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم...

فلمّا علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأوّل فقال: أمَّا حديثك الأوّل فقلت كذا وصوابه كذا، وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة، فردَّ كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك.

فأقرَّ الناس له بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل.

قال ابن حجر: هنا يُخْضَع للبخاري، فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب، فإنه كان حافظاً، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألَّفوه من مرة واحدة.

قال البخاري: أحفظ مئة ألف حديث صحيح، وأحفظ مئتي ألف حديث غير صحيح.

وسأله محمد بن أبي حاتم الورّاق: تحفظ جميع ما أدخلت في المصنّف؟ فقال: لا يخفى عليَّ جميع ما فيه.

وقال أيضاً: ما عندي حديثٌ إلَّا أذكر إسناده.

٤ ـ مناقبه وفضائله:

كان البخاري عزيز النفس عفيفاً، زاهداً عف اللسان، نبيل الشعور، شديد الورع، وممَّا يدل على ذلك قوله: «إني لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحداً».

قال أبو بكر الكلوذاني: ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل، كان يأخذ الكتاب من العلم، فيطَّلع عليه اطِّلاعة، فيحفظ عامة أطراف الأحاديث من مرة واحدة.

وقال عمرو بن علي الفلاس: حديثٌ لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث.

وقال أبو عمار الحسين بن حُريث: لا أعلم أني رأيت مثله، كأنّه لم يُخلق إلّا للحديث.

وقال له الإمام مسلم: دعني أُقبِّل رجليك يا أستاذ الأستاذين، وسيّد المحدّثين، وطبيب الحديث في عِلَله.

وقال الإمام أحمد بن حنبل: ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل.

وقال الإمام ابن خزيمة: ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من محمد بن إسماعيل.

وقال علي بن المديني: ما رأى البخاري مثل نفسه.

وقال محمود بن النضر أبو سهل الشافعي: دخلت البصرة والشام والحجاز والكوفة، ورأيت علماءها، فكلما جرى ذكر محمد بن إسماعيل فَضَّلوه على أنفسهم.

٥ ـ مشايخه:

سمع الإمام البخاري من شيوخ لا يحصى عددهم، أشهرهم الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، وأبو نعيم الفضل بن دكين، ومكي بن إبراهيم البلخي، ومحمد بن عبد الله الأنصاري، وأبو عاصم الشيباني، ومحمد بن يوسف الفِريابي.

٦ ـ تلامذته:

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: وأما الآخذون عن البخاري فأكثر من أن يحصروا وأشهر من أن يذكروا. وقد روينا عن الفِربري قال: سمع الصحيح من البخاري سبعون ألف رجل فما بقي أحد يرويه غيري، وقد روي عنه خلائق غير ذلك. وقد قدمنا أنه كان يحضر مجلسه أكثر من عشرين ألفاً يأخذون عنه، وممن روى عنه من الأئمة الأعلام: الإمام أبو الحسن مسلم بن الحجاج صاحب «الصحيح»، وأبو عيسى الترمذي، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأبو حاتم، وأبو زرعة، وأبو بكر بن خزيمة، ويحيى بن محمد بن صاعد، ومحمد بن عبد الله مطين.

٧ ـ مؤلفاته وما قيل في «الجامع الصحيح»:

وقد صنَّف الإمام البخاري التصانيف العديدة، ومن أشهرها «الجامع الصحيح» الذي اقتصر فيه على الأحاديث الصحيحة دون غيرها، وقد عدَّه حفاظ الأمة أصح كتاب من كتب السنة. وكان تصنيف كتاب «الصحيح» اقتراحاً من شيخه إسحاق بن راهويه. وقيل: إنه جمعه من نحو ستمائة ألف حديث، وقال: ما وضعت في كتاب «الصحيح» حديثاً إلا اغتسلت قبل ذلك وصلَّيت ركعتين. وقد استغرق تصنيفه «للجامع الصحيح» ست عشرة سنة حتى اعتبر أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.

قال الإمام النووي: «اتفق العلماء رحمهم الله على أن أصح الكتب بعد القرآن العزيز: الصحيحان: البخاري ومسلم. وتلقتهما الأمة بالقبول... وقد صح أن مسلماً كان ممن يستفيد من البخاري ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث». وقال الإمام الدَّهلوي: «أمَّا

الصحيحان فقد اتفق المحدِّثون على أن جميع ما فيهما من المتصل المرفوع صحيح بالقطع، وأنهما متواتران إلى مصنفيهما، وأنه كل من يهون أمرهما فهو مبتدع، متَّبع غير سبيل المؤمنين. . .».

وله كتب أخرى منها: التاريخ الكبير، والتاريخ الأوسط، والتاريخ الصغير، والضعفاء الصغير، وكتاب الكنى، والأدب المفرد، وكتاب التفسير الكبير، وقضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، ورفع اليدين في الصلاة، والقراءة خلف الإمام، وبر الوالدين، وخلق أفعال العباد، والجامع الكبير، وكتاب الهبة، وأسامي الصحابة، وكتاب المبسوط، وكتاب العلل، وكتاب الفوائد، وكتاب السنن في الفقه، ومشيخة البخاري، وكتاب الوحدان، وغيرها.

٨ ـ وفاته:

وقد رجع الإمام البخاري في آخر حياته إلى بخارى وسط حفاوة بالغة، ولمَّا استقر فيها طلب منه أميرها خالد بن أحمد الذهلي أن يحضر إليه ليُسْمِعه أو يُسْمِعَ أولاده كتابه الجامع، فأبى وقال لرسوله: «قل له: إني لا أذل العلم، ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة فليحضرني في مسجدي أو في داري»، وكان هذا سبب جفاء بينهما اضطر معه البخاري أن يترك بخارى، فخرج إلى بيكند.

وكانت وفاته ليلة عيد الفطر سنة ٢٥٦هـ بقرية خرتنك على فرسخين من سمرقند. رحمه الله تعالى.

* * *